من أناشيد : (طرفة في مدار السرطان)

الى بروميثيوس الجديد : الشاعر محمود درويش

الرحيل في ... الحلم

... عبرنا بحار العواصف ، جزنا برازخ ليل الضباب
وطافت زوارقنا المستميتة ليلا على كل مرفأ ،
وعدنا ،
ولا من مرايا لاشيائنا الضائعه ..
ولا من صليب صغير ، حزين لتمثال فجر الشباب !
وها نحن نولم للشبح المتخفي وراء السراب ..
وننحر للمقبلين من العالم اللولبي فضائلنا الرائعه !!
... مخرنا ضباب البحار الوضيئة ، جزنا مرافئها
وملأنا حقائبنا باللآلىء ، طفنا بكل الجزائر ، همنا خلال
أزيز الاشعة ،
تحت شموس البلاد القصية ، هرّأ بشرتنا الملح ...
نمنا وأشباح أجـــدادنا الميتين ترابط مسعورة قرب
هاماتنا المنعبه ،
خشينا الثلوج ، هربنا من الليل ، هاجمنا السيـــل ،
لم ينج منا ســوى
من تبدّت جراحهم المرعبه ..
...ويوما مررنا على كوخ زنجية نوّمتنا بسحر تعاويذها ،
وأفقنـــا :
فلاحت لنا كلنا : بخارا وعطرا
وصارت كيانا من الآبنوس محلى بماس وزهر .. نعرة
وفارت براكينها اغنيات من الدم ، صارت :
حشيشا وخمرا ،
وقالت فجـأة :
قفوا أيها الميتون الحفاة ، اتبعوني جميعا ...
فقمنا بخوف ..
مشينا ، مشينا ،
وجدنا جراء تموت ، خرافا تموء ، جيادا تحمحم ،
طفلا جريحا يغني ، فيرثي البراءه ،
وثارت رياح ، ودمدم من كل صوب هدير ،
وصرنا أمام مرايا تحدق فينا ،
وجدنا بأنا عراة ؟
خجلنا !
فصاحت كيان الدخان بنا ، فالتفتنا اليها ،
وكانت خيالا مضيئا تكوّر تحت عباءه ،
وكان نسيج العباءه ،
يشعّ .. وكانت خـــلال الخيوط تحدّق فينا عيون
بنفسجها ميت ،
وصارت طيور تحوّم في فسحة الافق ، صار الغبـــار
يلوّن جو المكان ، يعطّر ارض الزمان ..
و .. هبّت علينا رياح جديده ؟
ارتعشنا من البرد ، صرنا نخبىء عوراتنا باليدين ..
... وأقبل سرب صبايا عرايا ،
وصار الظلام هبابا موّرد
وصار الفراغ يفرّد ..
هممنا بسرب الحسان ، فأرعد صوت رهيب ،
فطنّا الى عرينا ،
فزعنا الى الشجر المرمري ،
هربنا من الريح ، صرنا خصاة !
ولاحقنا الصوت ، صار ثعابين تزحف حـــول فحولتنا
الواجفه ...
لجأنا الى الارض ، صرنا نغطي مخاوفنا بالتراب ...
و .. هلّ البكاء شآبيب صحو علينا ؟
نشجنا بخرقة مليون عام ،
بكينا ، بكينا ، بكينا ...

* * *

.. وهبّ علينا نسيم رخيّ ،
من الغيب ، عاد الينا الشباب ،
أفقنا من السحر والشعوذه ،
رأينا بأعيننا المعجزه ،
فهذا هو الشاطىء المستنير
وتلك زوارقنا الموجزه ..
خرجنا من الليل نحو النهار ،
امتطينا غيوم النعاس ،
سقطنا على أرضنا العاجزه !
ورحنا نحدق في كل وجه نراه ..
فتحدق فينا سماء وأفق نحاس ،
ونملأ أوجهنا بالبشاشه ،
فتبدو على كل وجه نراه اندهاشه !
ترى ، هل تغير مظهرنا ، وتولّى بريق السعادة فينا اليباس ؟
... هلا يا شباب طفولتنا الراقده ،
هلا ، سلموا يا شباب ،
امطرونا بقبلاتكم ، بابتسامة لهفه ،
أعيدوا الينا الفرح
أقيموا لنا في أزقة أيامنا الخاليه ،
معالم زينه ،
وأعراس حب ، وخلوا الاناشيد ملء الزمان وملء المكان ..
... ولا من مجيب ، ولا من حبيب !
وصارت مرايا الافق ،
ترينا معالمنا الضائعه ؟
فها هي أوجهنا الضارعه ،
تلوح لنا في المرايا وجوه مسوخ فريده ،
كأن حريقا تعشّق منها الرواء ولون الفرح ؟
امّحت قسمات ، تبدّت اخر :
ففي كل وجه عيون ثلاث ، وأنفان ، أذن وحيده ،
وثغران ، والرأس مثل الجليد المكور ..
تبدّت من الجلد ، في كل جزء من الوجه والرأس في
كل مفصل ، عظام عتيقه ..
بدونا هياكل منخورة ، مستفيقه ،
أتت من رمال العصور السحيقه ...
.. وكان يرين سكون مريب وفجأه :
أفقنا على وقعها للحقيقه ،
عدونا الى الخلف مثل الرياح ،
انتهزنا ذهول الحياة المحيقه ،
ففصنا بعيدا ، بعيدا ،
و .. تابع كل طريقه !!

دمشق ١ ـ ٥ ـ ١٩٧١

علي الجندي